"صراع العربية مع العبرية في المناطق المحتلة عام 1948"

د. محمد دوابشة
كلية العلوم والآداب – الجامعة العربية الأمريكية
أ . محمد أبو الرب
كلية العلوم والآداب – الجامعة العربية الأمريكية

مقدمة:

كانت اللغة العربية اللغة المسيطرة في فلسطين منذ الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، وفي فترات معينة احتلت لغات أخرى مكان العربية، ففي فلسطين في العهد العثماني، كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية للحكومة، وقد تعلمها السكان المحليون الذين كانوا على اتصال مع المسؤولين الأتراك أو عملوا عندهم، وكان لعدد مهم من اللغات الأوروبية (مثل الفرنسية والايطالية والألمانية والروسية واليونانية) مكانة دينية خاصة، وقد تم تدريس لغات أخرى للتخاطب مع الحجاج المسيحين، وقد أنشأ المبشرون الأوروبيون مدارس في المدن الكبيرة مثل بيت لحم والقدس ويافا والناصرة وعلموا اللغات الإنكليزية والإيطالية والألمانية والإسبانية والروسية، وكان تعدد اللغات مألوفاً خصوصاً في المدن الكبيرة، مثل القدس، فبالإضافة إلى اللغة العربية كانت اللغات المستعملة التركية واليونانية واليديش والإنكليزية والألمانية اللاتينية، وكان كثير من الناس وخصوصاً أولئك القاطنون في المدن ثنائي اللغة أو متعددي اللغة.

تنعكس التغيرات الاجتماعية والسياسية بشكل أو بآخر على اللغة، أي لغة كانت، وتظهر بعض الدراسات تأثير هذه التغيرات على اللغة، فعندما أعلنت إسرائيل أنها دولة قومية عرقية منذ إنشائها، انعكس هذا التعريف على فكرها في أحادية اللغة، لذا تجاهلت واقع تعدد الثقافات مع العرب.

وتركز هذه الدراسة على الصراع اللغوي (العربية مع العبرية) للفلسطينيين في إسرائيل، فالفكرة الأساسية الذي تتبناها الدراسة، أن الجانب اللغوي هو انعكاس للوضع الاجتماعي– السياسي الخاص في الدولة العبرية، بالرغم من وجود عدة لغات مهمة عندهم، لكن التركيز سيكون بشكل رئيس على صراع العربية مع العبرية؛ نظراً للتأثيرات الاجتماعية والسياسية واللغوية المتداخلة.

إن الواقع اللغوي للفلسطينيين في إسرائيل في الوقت الحاضر يتغير بسرعة، وذلك لعدة أسباب، منها الصراع المتبادل بين العربية والعبرية والإنكليزية مع بعض اللغات بشكل عام، وكذلك صراع العربية مع العبرية في المدن والقرى العربية بشكل خاص. واللغة العربية هي اللغة الأم واللغة القومية لدى المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل، وهي لغة عدد لا بأس به

من اليهود الشرقيين، وهي اللغة الرسمية الوحيدة للبلدان المجاورة لإسرائيل، وتتمتع بمكانة خاصة بين الدول الإسلامية، ولغة الأقلية في إسرائيل ومعترف بها بوصفها لغة رسمية ثانية.

كانت اللغة العربية اللغة الرسمية في فلسطين التاريخية حتى إنشاء الكيان الصهيوني، وبسبب الظروف الاجتماعية والسياسية المتغيرة، أصبحت لغة هامشية، ويتم تعلم العربية وتعليمها في جميع المدارس العربية الفلسطينية في إسرائيل من الصف الأول وحتى الصف الثاني عشر وفي عدة معاهد عليا لتأهيل المعلمين. أما اللغة العبرية فهي لغة الدولة المسيطرة، ويتم تعلمها بشكل رسمي وغير رسمي، وبما أن العبرية تلقى اهتماما أكبر في إسرائيل، فإن الفلسطينيين يتعلمونها كلغة الدولة وليست كلغة أجنبية.

البـــحـــث

تهدف هذه الدراسة بيان واستيضاح تأثير العوامل غير اللغوية على الواقع للفلسطينيين، ويمكن النظر إلى هذا الجانب من خلال ثلاث مجموعات من العوامل المترابطة: موقف إسرائيل من العرب الفلسطينيين في إسرائيل، والتطورات الداخلية داخل المجتمع العربي نفسه، وموقف العرب أنفسهم من اللغة.

وقد كانت إحدى نتائج التحديث والاتصال مع اليهود إدخال بعض جوانب الثقافة الغربية التي كان بعضها في السابق غريباً عن المجتمع العربي في فلسطين، وقد أدى التحديث والتحول الحضري إلى تغيرات اجتماعية رافقها تغيرات لهجية ولغوية.

وقد أدت نهاية الحكم العثماني في فلسطين العام1917 إلى تغيرات في جميع مناحي الحياة ومن ضمنها اللغة، وقد عزز الانتداب البريطاني في فلسطين مكانة اللغة العبرية التي كانت آنذاك مترسخة كاللغة التي تم إحياؤها للمجتمع اليهودي.

1- مكانة العربية في الدولة العبرية:

إن اللغة العبرية هي اللغة المسيطرة في إسرائيل والعربية هي لغة مهمة فقط للأقلية العربية، ولا يوجد لها دور مركزي في المعاملات الرسمية أو المراكز الحكومية والمراسلات في المدن والقرى العربية، ولم يكن الحال كذلك قبل إنشاء إسرائيل. ويتزامن هذا التغير مع التغير السياسي والسكاني، حيث أصبح اليهود أغلبية وأصحاب سيادة في الجزء الخاص بهم من فلسطين المقسمة، وسعوا إلى جعل الهوية المسيطرة للدولة، إذا لم تكن الهوية الوحيدة، هوية يهودية، ونتيجة لذلك أصبحت العبرية لغة مهيمنة.

وقد ظهرت إشارات هذا التغير اللغوي قبل نصف قرن من إنشاء إسرائيل، وكان إحياء اللغة العبرية ودخولها إلى الحلبة عنصراً رئيسياً في تغير المشهد اللغوي الاجتماعي في فلسطين.

وارتبط أحياؤها بالقوميين اليهود والأيديولوجيين بينهم، الذين سعوا إلى إحياء اللغة العبرية والهوية العبرية في فلسطين.

اليوم لا تشكل اللغة العربية في إسرائيل تهديداً للغة العبرية، ولا يتم إدراكها بأنها كذلك من قبل الجمهور العام، أو بين هؤلاء الذين يضعون السياسية، وعلى العكس من ذلك يتذمر الكثيرون من المستوى المنخفض في معرفة العربية بين اليهود، ويودون تغير الوضع،

إن اللغة العربية في إسرائيل هي لغة أقلية فلسطينية، أقلية هامشية في جميع المجالات العامة، وتم تصنيف العربية على أنها لغة العدو، و انعكس هذا في دراسة العربية عند اليهود، وتم التركيز على العربية كلغة الأمن والحفاظ على النفس والدولة معاً، وليس كلغة ثانية.

أما عن مكانة اللغة العربية في الدولة العبرية؟ فقد كان المحور الأكثر أهمية في الأيديولوجية الصهيونية هو خلق هوية جديدة، تختلف عن هوية الشتات في جميع المفاهيم، في الهوية الجديدة سيتكلم الشخص العبري اللغة العبرية، وسيعمل في الأرض العبرية، أي، يمكن القول، إنه بتغير الهوية يمكن حصول تغير رئيس في الشخص وفي الأرض، عندما يشكل إحياء اللغة العبرية (الشخص)، والقيم المنسوبة إلى العمل العبري (الأرض) العاملين الرئيسيين، وهكذا فقد شكل إحياء اللغة مكانا حيوياً في بناء الهوية القومية اليهودية الجديدة، وفي الهوية الجديدة، يوجد مكان فقط للغة واحدة: العبرية، والعرب – بالطبع – هم خارج هذه الدائرة.

إن دور اللغة العربية محدود جداً، وهيمنة العبرية تكاد تكون شاملة، واليوم عندما يغادر الفلسطيني مكان إقامته، فهو لا يتمكن من تصريف أموره دون اللغة العبرية، إن بقاء اللغة العربية كلغة التدريس ساعد في الحفاظ على العربية وعلى نسيجها اللغوي الاجتماعي كلغة أمة، وإن معرفة العربية واستعمالها، هو الأمر الذي حافظ أكثر من أي شيء آخر على الهوية القومية للعرب في الدولة اليهودية.

إن المتكلمين بالعربية معرضون لوسائل الإعلام العربية، خصوصاً التلفاز والراديو والفضائيات، وهذا يساهم في تقوية العربية الفصيحة. فعلى مدى نصف القرن الماضي، حصل تحسن واضح على نسبة التعليم بين الناطقين بالعربية وسنواته أيضا، وإحدى التأثيرات المهمة لهذا التغيير كانت زيادة في معرفة العربية الفصيحة واستعمالها، خصوصاً المفردات، الأصوات والعبارات، بالإضافة إلى التعليم؛ لأسباب عدة منها، الاتصال مع الدول العربية بعد حرب 1967، ومعاهدات السلام مع بعض الدول العربية، وقد كان التلفاز من أكثر المصادر أهمية للاطلاع على اللهجات العربية غير الفلسطينية ومعرفة شيء عنها. وثمة ظاهرة أخرى جديرة أن تذكر، هي الفضائيات العربية، وتكمن أهميتها بأنها أطلعت العربي الفلسطيني على جميع اللهجات العربية، ويلاحظ الاستعمال الواسع للعبرية والإنكليزية (بشكل رئيسي العبرية) أيضاً على كل من اللافتات الخاصة والعامة في لقرى والمدن العربية، ويشير هذا إلى جميع الأشياء اللغوية التي تبرز معالم الحياة العامة، وتشمل لافتات الطرق وأسماء المواقع

والشوارع والبنايات والأماكن والمؤسسات، وأيضاً لوحة الإعلانات، والإعلانات التجارية، وحتى بطاقات الزيارة الشخصية، وتكون بعض هذه الاستعمالات اللغوية من قبل مؤسسات الدولة والبعض الآخر من قبل المجتمعات المحلية وأخرى من قبل الشركات والهيئات والأفراد.

فالواقع اللغوي الفلسطيني في إسرائيل يظهر أن غالبية اللافتات التجارية هي ثنائية اللغة (أكثر من 60%) ،وعادة ما تكون عربية–عبرية أو عبرية – عربية، وحوالي سدس اللافتات هي ثلاثية، وغالباً جداً تكون عربية–عبرية – إنكليزية، واللغة العبرية موجودة في غالبية اللافتات ثنائية اللغة ولكنها تظهر أيضاً كاللغة الوحيدة في أكثر من 20% من اللافتات، وهي تعادل في ذلك اللغة العربية.

وتؤدي اللغة العبرية أحياناً وظيفة رمزية أيضاً كما ينعكس في عدد من المعاني، فإما أنها:

1- تدل في حقيقة استعمالها بأنها إحدى وسائل التحديث في المجتمع العربي.
2- أو يرمز استعمالها إلى المكانة العالية للأشياء التي تمثلها العبرية.
3- أو أنها ترمز إلى استعداد العرب لفتح نافذة على المجتمع الإسرائيلي.

وفي دراسة علمية ميدانية طلب من بعض الطلاب العرب، وهم طلبة في مدارس ثانوية وكليات عربية، في تسعة أماكن (قرى ومدن عربية ومدن مختلطة) من مناطق جغرافية مختلفة في إسرائيل وفي كليتين (واحدة في المثلث والأخرى في النقب).

طلب منهم أن يقرأوا العبارات التي تظهر في الاستبيان وأن يشيروا الى أية درجة يوافقون فيها على المضمون، وقد تضمنت هذه العبارة نواحي متنوعة حول اللغة: الناحية الرمزية واختلاط اللغات، واختيار اللغة، وتعليم اللغات، وأساسية اللغة في نظر المتكلم، واستعمال اللغة لأغراض عملية، والمعرفة اللغوية، والأهمية الثقافية للغة، والأهمية السياسية والمكانة العالية التي تمنحها اللغة لمستعملها. وقد أظهرت نتائج البحث فروقات شاسعة في إدراك اللغات الثلاث، ففي اللغة العربية، كان الجانب الرمزي، هو الأكثر أهمية؛ لأن العبارت التي عالجت هذا الموضوع حصلت على التقييم الأعلى (مثل "إنها لغتي القومية"، "إني فخور باللغة العربية"، الخ)، وقد تم إدراك اللغة العبرية على أنها لغة الاتصال مع الإسرائيلين اليهود في النواحي المختلفة، أي انها لغة مفيدة لأغراض عملية ("تعلم العبرية يزيد من فرص قبول المرء في الجامعة"، "إيجاد عمل في اسرائيل" الخ)، وحصلت ست عبارات حول هذا

الموضوع على التقييم الأعلى وفي المقابل، فقد تم فهم اللغة الإنكليزية على أنها لغة حيوية لأغراض عملية.

2- سياسة التعليم:

إن أحد الأهداف الرئيسية للتعليم في الوسط العربي، هو تفريغ التعليم العربي من أي محتوى قومي، فقد سعى الساسة منذ إنشاء دولة إسرائيل؛ لتعزيز العامل الديني _ الثقافي والمواطنة الإسرائيلية بدلاً من العامل القومي _ العربي"، وتتوافق هذه السياسة مع تعريف اسرائيل وتعريفها بأنها دولة يهودية، وقد تم تنفيذ هذه السياسة من خلال المناهج.

وتمت إزالة المناهج والكتب المدرسية السابقة التي استعملت في عهد الانتداب البريطاني بشكل كامل: ثانياً، وهدفت المناهج والكتب المدرسية الجديدة إلى تشديد سيطرة الدولة على مضامين التعليم العربي، ويظهر تحليل الأهداف التربوية العربية والمناهج ومحتوى الكتب المدرسية، بوضوح، بأن الدولة تهدف إلى إضعاف الهوية العربية الفلسطينية.

فالكتب المدرسية في الوسط العربي في اللغتين العربية والعبرية لا تلبي حاجات الطالب العربي، ومن خلال التعليم العربي تطمع الدولة الاسرئيلية إلى تحقيق سياسة التفريغ القومي بين الأقلية العربية، أي: إضعاف قيمة الهوية واللغة، إذ تركز المناهج على نصوص من الفترة الكلاسيكية العربية التي لا تمت بصلة إلى حياتهم اليومية. ففي المنهاج السابق تم التركيز على اللغة العربية كأداة للتعبير عن الذات، واستثناء دورها في نقل الرموز القومية بشكل كامل، وفي المنهاج الأخير، تم ذكر اعتزاز الطلاب العرب بلغتهم، كأحد أهداف تعليم العربية، ولكن لا يوجد تطابق بين الأهداف المعلنة للمنهاج وبين المواد التي تم تعلمها، مثلاً، إن أحد الأهداف، هو "فخر العربي في لغته القومية"، وهذا شعار أكثر من كونه حقيقة؛ لأنه لا ينعكس في المواد التي تم تدريسها.

وقد قمنا بأجراء استفتاء في الأرض المحتلة عام 1948، ووزعنا استبانه على فئات عربية مختلفة في المستوى التعليمي والفكري، وطرحنا عليهم أسئلة، أجابتها نعم أو لا أو لا أدري.

وقد كانت إجابتهم على النحو التالي:

اللغة العربية هي الأقوى في مواجهة الصراع مع العبرية:

48 نعم و 24 لا و 3لا أدري.

اللغة العبرية هي الأقوى في مواجهة الصراع مع العربية:

21 نعم و 51لا و23 لا أدري.

هل هناك دافع داخلي وإرادة حقيقية لمواجهة هذا الصراع؟

62 نعم و 7 لا و6 لا ادري.

هل هناك خوف من ذوبان اللغة العربية في الأراضي المحتلة سنة 1948.

39نعم و 29 لا و 9 لا ادري.

هل الانتماء والقومية لهما دور في مواجهة الصراع اللغوي؟

70 نعم و 5 لا و (0) لا أدري.

هل سهولة اللغة العبرية جعلتها تحل محل اللغة العربية:

30 نعم و40 لا و 5 لا أدري.

دور الأهل والأسرة في التصدي للصراع بين اللغتين.

64نعم و10 لا و 1 لا أدري.

اللغة ذاتها في مواجهة اللغة العبرية وقدرتها على مواجهتها.

26 نعم و44 لا و5 لا أدري.

دور أصحاب اللغة إن كانوا قادرين على النهوض بها لمواجهة العبرية.

63 نعم و 6 لا و 6 لا أدري.

هل يوجد صراع لغوي تشعرون به ومواجهة بين اللغتين.

50 نعم و18 لا و 7 لا أدري.

ويدل هذا الاستفتاء الموضوعي على:

- الإصرار على المحافظة على اللغة.
- وعدم الذوبان الثقافي.
- الانتماء القومي والديني عند عرب 1948.
- إصرار الأهل والأسرة على تربية أبنائهم على اللغة العربية وتعلمها منذ النشأة.

ويعطون كذلك الدور الأكبر لأصحاب اللغة وأهلها في المواجهة والصراع بين اللغتين لا إلى اللغة ذاتها التي يرون أن لها دورا أيضا في ذلك بسبب عظم إمكانياتها وخصائصها.

- ولا ننسى أن هناك دافعا داخليا لدى أصحاب العربية للمواجهة والتحدي والمحافظة على العربية.

ويرجع الذين أجابوا عن الاستبانة –وعددهم خمسة وسبعون شخصا من الجنسين، وبمستوى تعليمي عال ومتوسط – أسباب وجود الصراع بين اللغتين للأسباب التالية:–

– التمييز العنصري بين الشعبين في الدولة أدى إلى الحس القومي الذي امتد إلى اللغة.
الاختلاط بين الشعبين والاحتكاك المباشر بينهما.
– كون العبرية اللغة الرسمية ولغة الإعلام بوسائله المختلفة، أدى الشعور بالضيق والغيرة على العربية.
– الجهل بقيمة العربية.
– لان العبرية لغة التعليم في الجامعات ومختلف المؤسسات التعليمية أدى إلى الغيرة على العربية.
– سبب خارج عن إرادة الشعبين وهو الغرض من السلطة.
– الصراع السياسي سبب في الصراع اللغوي.
– المناهج وطبيعتها لغويا.
– انعدام الوعي القومي والثقافي.
– الرغبة في الانخراط في المجتمع الإسرائيلي مقابل الرغبة في المحافظة.
– سهولة العبرية عند بعضهم سبب للصراع والمنافسة.
– أغلبية السكان تلعب دورا في قضية استعمال اللغة في الدولة.
– عدم الاهتمام بالعربية واحتسابها في القبول في الجامعات والوظائف.

وعند طلب منهم الاقتراحات من أجل النهضة بالعربية أمام العبرية اقترحوا:–
إيجاد وسائل إعلان باللغة العربية نطقا وكتابة.
إيجاد مؤسسات تعليم عالي بالعربية.
مؤسسات تجارية مستقلة لغتها العربية.
التمسك باللغة بالكلام بها فقط.
التركيز على دور الأهل مع أبنائهم ودور الأسرة.

المحاولة بالنسبة للمناهج:
تعريف العرب بالصراع من أجل الوعي في هذا المجال.
التركيز على دور المدرسة.
التمسك بالدين والتركيز عليه حتى يمتد ذلك إلى اللغة

الكتابة الأدبية باللغة العربية ونشر ما يكتب والإنفاق على ذلك.
البعد عن العامية و استخدام الفصيحة قدر الامكان.
استخدام العربية رسميا إلى جانب العبرية وإعادة الثقة بها حتى تنهض اللغة.

وبعد، فها هم أولاء أصحاب الصراع وطرفه المباشر، يجدون الأسباب ويشرحون الواقع الأليم الموجود ،ويطرحون الحل، ويقترحون الوسائل الممكنة ؛لكي يبقى الصراع موجودا على الأقل إذا لم يحسم، ونقول أن الباحثين يتبنيان هذه الاقتراحات جميعا خدمة للغة العربية وللأرض العربية وللعرب الذين يسكنون ذلك الجزء الغالي من أرضنا.

المصادر والمراجع

- أمارة، محمد، اللغة والهوية في اسرائيل، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ط1، 2002.
- مرعي، عبد الرحمن، مكانة اللغتين العربية والعبرية في الماضي والحاضر، مجلة الرسالة، كلية بيت بيرل، 1898.
- أمارة، محمد، وآخر، قضية التعليم في المدارس العربية في اسرائيل، مركز جفعات حبيبا، 1999.
- عايش وآخرون، العربية الحديثة في إسرائيل، 1983.